شَجَرَةُ الغَرِيبِ

بقلم

عادل مناع

تصميم الغلاف

هشام حسين

الصوفية
www.alsoufia.com

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٩٢٩٦ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي: ٢ – ٠٦٣ – ٤٥١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لموقع الصوفية

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٦٧٢٢٩٥٣

ص ب: ٦٨٩٨٠

الرمز البريدي: ٣١٥٣٧

E-mail:almagdy3@gmail.com

الهروب

القاهرة.

١ مارس ١٨١١م.

منزل أحد أعيان المماليك.

وقف ذلك الأمير المملوكي في توتر وقلق، يجوب أرجاء المنزل ذهابًا وإيابًا، يستمع في انزعاج وخوف إلى صراخ تلك المرأة في حجرة مجاورة، ولم ينتشله من حالته تلك سوى خروج جارية بدت عليها أمارات البشر وهي تقول: أحمد بك، أحمد بك، مبارك، لقد رزقك الله بصبي كالقمر.

ما إن استقبل أحمد بك هذه البشرى حتى بادر بالسجود إلى الله شكرًا على غلام طال انتظاره، وأتى بعد عشر سنوات من الحرمان، ولم ينس أن يدفع إلى صاحبة البشرى بكيس من الأموال.

دخل مسرعًا إلى حيث زوجته وابنة عمه في نفس الوقت، فأمسك بيدها يقبلها ويمسح العرق عن جبينها، وهو يقول في حنان: حمدًا لله على سلامتك يا قرة عيني، حمدًا لله، ثم قفزت عيناه إلى ذلك الصبي الذي بدا كالقمر كما وصفته الجارية.

ابتسم وهو يحمل صبيه ويمعن النظر في قسمات وجهه، ثم داعب زوجته قائلًا: إنه يشبهك يا جولنار، هي ذاتها نفس الملامح.

بادلته ابتسامة واهنة وهي تقول في خفوت: أرى أنه يشبهك أنت أكثر يا ابن عمي.

وما كاد ينعم بتنقل بصره بين فلذة كبده وزوجته الحبيبة حتى تناهى إلى سمعهما صوت طرقات عنيفة على الباب، تنبئ بأن هناك خطبًا جللًا.

على الفور هرعت الجارية تجاه الباب، فدلف أحد أصدقاء سيدها مسرعًا وقد ارتسمت أمارات الفزع على ملامحه، فهتف بصاحب المنزل: أحمد بك، أحمد بك.

استقبله أحمد في توتر وهم بسؤاله عن سر فزعه، إلا أن الرجل قد عاجله بقوله: هيا، اصطحب زوجتك وما خف من أموالك، واهرب سريعًا من هذا المكان، هيا.

أحمد: ما الذي حدث؟ تكلم يا رجل.

أجاب بسرعة وفزع: الباشا محمد علي، اغتال من حضر حفل تنصيب ولده طوسون على الجيش المسافر إلى الجزيرة، اغتال كل أمراء المماليك الذين حضروه، هيا لم يعد هناك وقت.

أحمد وقد اتسعت حدقتاه: يا إلهي، كان من المحتمل أن أكون في تعداد القتلى لو لم يحدث ظرف الولادة الطارئ، ولكن...

قاطعه الرجل قائلًا: هيا يا أحمد، ليس هناك وقت فالجنود يجوبون الأحياء ينهبون البيوت ويقتلون من يجدونه حيًّا، هيا، لقد أعددت راحلتي وجهزت أهلي للرحيل أنا أيضًا، أستودعك الله.

قالها الرجل وخرج مسرعًا، بينما توجه أحمد من فوره إلى حجرة زوجته بعد أن أمر بتجهيز راحلة لهما، فنظر إلى زوجته في حنان وهو يقول: حبيبتي، أعلم أنك متعبة وأن ولادتك كان متعثرة، ولكن لابد وأن نهرب من هنا بسرعة، تحاملي على نفسك واتكئي عليَّ.

جولنار في فزع وتهالك: لقد سمعت كل شيء يا أحمد، لا تلقِ بالًا لحالتي، أنا بخير، لا تقلق.

انطلق أحمد بك وخلفه على فرسه زوجته المتعبة والوليد في حضنها، يتردد بصر الأمير المملوكي بين الأمام والخلف خيفة وتوجسًا، فاتجها قبالة الصعيد، سالكين طريقًا صحراويًّا وعرًا ينشدان لهما وللصغير النجاة.

ساعات قد مضت على بداية رحلة الهروب، والزوجة تترنح خلف زوجها من فرط الإعياء، ولقد شعر هو بذلك الضعف الشديد الذي اعتراها، ومزيج من المشاعر تتقلب في

كيانه، ما بين خوف جنود الباشا أن يلحقوا بهم، وشفقته على تلك التي تترنح ضعفًا ويغلبها الأنين وهي تكتمه فيصل إلى سمعه فيفطر قلبه.

أوقف أحمد فرسه ثم أنزل زوجته في لهفة، والتي بدت وكأن الموت قد شق طريقه إليها.

وضع الصبي على الرمال وأسند زوجته إلى ساعده، وهو يسقيها جرعة ماء، وقد لاح من بعيد كوكبة من الفرسان وكأنهم سرب حشرات زاحفة من بعد المسافة، فحاول من جديد حملها وهو يصرخ: هيا، هيا يا حبيبتي سوف يدركوننا.

الزوجة: لا فائدة، إنني أموت يا أحمد، اهرب بوليدنا، اهرب، ولدي أمانة في رقبتك، لا تسلمه إلى من لا يرحم، اهرب أرجوك يا أحمد، هذه آخر أمنية لي، أريد أن يعيش ولدي، وأريد أن تعيش أنت يا زوجي الحبيب.

أحمد في غضب وهو يسل سيفه من غمده: لا، لن أدعك لهم، سوف نعيش سويًّا أو نموت سويًّا، إذا كان من الموت بد فلنمت جميعًا، لا أستطيع الحياة بدونك يا ابنة عمي.

الزوجة: لا فائدة يا أحمد، إنني أموت، اهرب بولدنا، أستحلفك بالله لو قبضوا عليك سيقتلونك ويقتلون الرضيع، اهرب.

أجهش أحمد بالبكاء وقد شعر بالعجز والخوف معًا لأول مرة في حياته، وجعل يربط الوليد في قطعة قماش ويضعه خلف ظهره ثم يعقد طرفيها على صدره وهو يقول: هيا يا حبيبتي سوف أحملك على الحصان، لن...

قطع كلماته مشهد زوجته وقد مالت يداها جانبًا، وشخص بصرها إلى السماء، أما هو فقد انكب عليها صارخًا: جولنار، جولنار، تكلمي، انطقي، أنت لم تموتي أليس كذلك؟ تكلمي يا جولنار، قولي لي أنك لم تفارقيني، تكلمي يا جولنااااااار.

أظلمت الدنيا في عينيه وهو يتابع صراخه بلوعة: جولنااااااار، قومي معي يا حبيبتي، قومي يا جولنااااااار، قالها وهو يصرخ وينتحب.

لم يستفق من دهشته إلا على صراخ الرضيع، فقام والغلام على ظهره بعد أن نزع قلادة جولنار من على صدرها، والتي نقش عليها اسم أحمد وجولنار، يريد أن يحظى بتذكار أخير منها.

اقترب منه فريق المطاردة، وما إن وقع بصره عليهم من مسافة قريبة حتى انفجر الغضب في نفسه كالبركان، يريد أن يقتلهم جميعًا انتقامًا لزوجته الراحلة، لكنه سرعان ما تذكر وصيتها بولده، فأغمد السيف واعتلى صهوة جواده والصبي على ظهره.

انطلق يسابق الريح بعد أن ألقى نظرة الوداع على جثمان جولنار، يدعوه الطريق الممتد أمامه للإسراع، بينما لا يستطيع أن يكف رأسه عن الدوران والنظر حيث ترقد زوجته

الحبيبة، وفي كل نظرة يلقيها على جولنار كان يصرخ ويصرخ، وهو يرى مكانها يغيب عنه كلما قطع المسافات.

وازداد قلبه اشتعالًا وهو يتساءل في نفسه عن مصير ذلك الجسد الممدد على الرمال، أيكون طعمة للوحوش في البرية أم يكرمها صاحب قلب رحيم ويواري جسدها التراب.

شجرة الأحزان

أيقن أحمد بعد ساعات من الركض أنه صار بمأمن من ملاحقة الجنود، فانتهى به سعيه إلى أطراف إحدى القرى في قنا، ونزل من على جواده يحمل الصبي، وتلفت يمنة ويسرة، لا يعرف إلى أين يتجه بهذا الحمل الثقيل، حمل أحزان على ما كان، وحمل مخاوف مما يكون.

اعتلى ربوة من الرمال تحتضن شجيرة، قد بدت لحظات الغروب وكأنها مثل الرجل تمامًا في غربته ووحدته.

أسند الأمير المملوكي ظهره للشجرة الصغيرة وهو يضم الصبي إلى صدره ويسكب عليه دموعه، وقد علا نحيبه لهذا البؤس والشقاء الذي حل به.

بيدين ترتجفان رفع السقاء إلى فمه يرتشف جرعة ماء يلتمس خلالها البقاء من أجل الصغير، فنظر بعدها إلى صبيه في حيرة، لم يدر ماذا يعطي ولده ليظل على قيد الحياة، فبلل أصبعه بالماء ووضعه في فم الرضيع، والذي شرع يمص أصبع والده بنهم، فأسند الرجل رأسه إلى الشجرة في إعياء شديد قد غلبه حتى استسلم لغياب عقله.

لم يدر كم من الوقت قد مر عليه قبل أن يفيق من سباته وقد اكتنف الدنيا الظلام، فانتبهت معه آلامه، فعاودته من جديد بنفس الشدة والقسوة، لكأنه قد فقد زوجته في تلك الساعة مجددًا، فعلا النحيب والبكاء.

جعل يكلم الصبي وهو يتفطر من الحزن والبكاء: آه يا ولدي، ترى كيف أمك الحنون؟ أين صار جسدها الطاهر؟ آه يا جولنار، إذا ما سألني ولدك عنك، بم أجيبه؟ قالها وازداد نحيبه وبكاؤه.

أثار انتباهه أن الصبي لم تصدر منه صرخة أو أنّة، ساوره الشك وكاد يخلع قلبه، فقرب أذنه من وجه الطفل علَّه يسمع صوت أنفاسه، لا شيء، لا حراك، لا نبضات، ظل يهز الطفل في عنف متدرج، وصرخات مكتومة ونحيب متقطع، لا شيء، قد فارق الحياة.

ضم الصبي إلى صدره في بكاء هستيري، وهو يقول: متي؟! مرة أخرى يا جولناااااااار؟ فارقتيني مجددًا يا جولناااااار، آآآه يا زوجتي ويا ولدي.

وما هي إلا ساعة متواصلة من النحيب حتى شرع في تغسيل الصبي بما تبقى من ماء في سقايته، وكفنه في عباءته، وحفر له في أصل الشجرة.

لقد دفن حياته في ذلك المكان، دفن ولده الذي لم يهنأ به يومًا كاملًا بعد انتظار عشر سنوات، ودفن قلادة زوجته، وكأنه قد أقبر جولنار ذاتها، بل لقد هم بقتل نفسه حتى يلحق بهما، غير أن بقية صبر لها رصيد في قلبه منعته.

أدى صلاة الجنازة على الرضيع، ثم خارت قواه فتمدد على الأرض بجوار القبر الذي أسكنه سعادته وفرحته الموءودة التي لم تكتمل.

وضع خده على القبر الصغير في أصل الشجرة، وسالت تحتها دموعه وكأنه يرويها بتلك الأحزان المتدفقة.

التيه

أشرقت الشمس ناشرة أشعتها الذهبية على الرمال، وقد أفاق الناس من نومهم على مشهد ذلك الغريب الذي ألصق جسده بجذع الشجرة، وهو ينتحب ويصرخ، يصمت شاردًا تارة، ثم يعاود العويل تارة أخرى.

لم يجترئ أحد من أهل القرية على الدنو منه، ولكنهم كانوا يراقبونه بحذر على مسافة أمتار معدودة تفصل بينه وبينهم، دون أن يجدوا تفسيرًا للصوقه المستمر بأصل الشجرة وتمريغ خديه في تربتها.

اعتاد الناس هذا المشهد المتكرر على مدى أيام حتى اقترب رجلان منهم من الغريب، وقد وجداه شارد الذهن وكأنه لا يشعر بهما برغم وقوفهما إلى جانبه، فسألاه: من أنت؟

التفت أحمد إليهما ببطء، ثم عاود شروده وهو يجيب بوهن: أنا؟ لم أعد أعرف من أنا، كررها في خفوت قبل أن يسألاه مجددًا: من أي البلاد أنت؟ ثيابك ثياب أمراء.

أجاب في تهالك كالمخمور الذي يهذي بكلمات متقطعة: بلادي، ذكرياتي، أحلامي، أفراحي، قلبي وعقلي وحياتي كلها هنا في أصل هذه الشجرة.

«أودعت فيها أسراري» قالها بصوت خافت وهو يقبل عليهما متلفتًا يمينًا ويسارًا كالذي يعتزم البوح بسر عظيم، ثم انفجر بعدها ضاحكًا والدموع تنهمر من عينيه في نفس الوقت.

اتسعت حدقتاه فبدا منظره مخيفًا، الأمر الذي جعل الرجلين يتأخران خطوة إلى الخلف بعفوية فتابع هامسًا: إن لهذه الشجرة أسرارًا عظيمة، الويل لمن يقترب من تربتها، الويل له، الويل له، ثم عاود الانفجار في الضحك بشكل هستيري أجبر الرجلين على الفرار خوفًا، تاركين إياه يتمرغ في أصل الشجرة وهو يصرخ.

تناقل الناس أخبار الرجل، وتنازعوا في أمره ما بين قائل بأنه مجنون، وقائل بأنه هارب من العدالة، لكن أكثر الناس في القرية رأوا أنه ولي من أولياء الله الصالحين.

وذاع بالفعل بين القرية وما حولها بأن الغريب ولي يعرف للشجرة أسرارًا وبركات، حتى دأبوا على تقديم الطعام والشراب والكساء للرجل الشارد، والذي لم يزدهم شروده وذهوله وصراخه إلا اقتناعًا بولايته وصلاحه، وإيمانًا ببركة تلك الشجرة.

وبعد مرور خمسة أعوام، قضاها الأمير البائس على وتيرة واحدة، خُيِّل إليه ذات ليلة أن امرأة بثياب بيضاء يمسك بيدها صبي كالبدر، قد أقبلا عليه من بعيد، وقد أطلق كل منهما نداءً تردده البراري: أحمد، أبي، أحمد، أبي.

قام أحمد من مكانه وقد تبين ملامح زوجته جولنار وابنها، وقد نشرا ذراعيهما له، وتوقفا على مسافة منه، ثم جعلا يتأخران خطوة خطوة وكأنهما يطلبان منه السير خلفهما.

ابتسم الغريب وهو يتبعها إلى حيث يسيران أمامه، بل ظل يركض ويركض خلفها، وهو ينادي صارخًا: جولنار، ولدي، انتظراني، انتظراني، حتى غابت عنه معالم القرية، ولم يُرَ له أدنى أثر بعدها، ولم يعلم الناس عنه شيئًا بعدها.

وأما أهل القرية فقد أصابهم الذهول والدهشة عندما فقدوا آثار الرجل، لكنهم قد عادوا إلى حيث كان يقطن، إلى تلك الشجرة التي قد كستها هالة من المهابة قد نسجتها أوهام الناس في القرية.

شيئًا فشيئًا أصبحت الشجرة بعد رحيل الغريب مأوى للمحتاج والملهوف، قد احتلت مكانة عظيمة لديهم، يهرعون إليها، يتمسحون بها، يستشفون بأوراقها، ويلتمسون البركة في تربتها.

❁❁❁❁❁

الميراث المشئوم

❁ نفس القرية عام ٢٠٠٧م:

في إحدى دور القرية، كان يعيش «رجب»، شاب بسيط هادئ الطباع، لم يمض على زواجه سوى عام واحد، في بدايته كانت السعادة ترفرف عليه في عش الزوجية، لكنه وبمرور الأيام والشهور حلت مكانها الكآبة.

فلم تلح بشائر استقبال مولود على مدى ذلك العام، وقد حاصرت الزوجين أسئلةٌ لا يمل منها السائل: هل حدث؟ لماذا التأخير؟ هل هو مرض؟ هل هو سحر... إلى آخر هذه السلسلة المألوفة في مجتمعه، والتي صارت تلاحقه وزوجته في الغدوة والروحة.

بدا «رجب» شاردًا قد أثقلته الهموم وهو يطالع الطريق الضيق أمام بيته من خلال نافذة حجرته، يتأمل هؤلاء الصبية وهو يلعبون ثم يخاطب نفسه:

ما الأمر؟ لماذا كل هذه الهموم ولم يمض على زواجك سوى عام واحد لا عشرة أعوام؟

فيجيب نفسه: المشكلة ليست في نفسي، بل في والدتي التي لا تكف عن الصياح تطالب بالحفيد الأول، ووالدي الذي يقارن دائمًا بيني وبين أبناء عمومتي.

انتشله من شروده صوت طرقات على الباب، سرعان ما تبين هوية صاحبها من خلال كلمات زوجته التي ذهبت لتفتح الباب.

لقد كانت والدة الزوجة، امرأة حنون، لم يجد منها إلا كل خير، لكنه حقًّا لن يستطيع في هذه اللحظات تكلف الكلام معها، فما هي إلا لحظات قدَّم فيها الترحاب حتى استأذن وخرج.

تبعته أم زوجته ببصرها حتى جاوز باب الدار، فالتفتت إلى ابنتها قائلة: ما بال زوجك يا حنان؟

حنان: لا شيء يا أمي، تعرفين أنه قلق بشأن مرور عام على زواجنا ولم أحمل بعد.

الأم: لم لا تذهبين إلى شجرة الغريب يا ابنتي؟ إن لها أسرارًا وبركات، اذهبي فقط وعلقي ثيابك عليها، واحملي معك شيئًا من تربتها وضعيه على ماء واغتسلي به.

حنان: وهل سيجدي هذا يا أمي؟ أنا أشك في ذلك، وزوجي هو الآخر يقول بأنها خرافات.

الأم: أي خرافات يا بنيتي، إنها مجربة، لطالما فزع إليها آباؤنا وأجدادنا، وما زال الناس يذهبون إليها لقضاء حاجاتهم، يلتمسون منها البركة والشفاء والإنجاب.

هزت حنان رأسها وهي تقول: حسنًا يا أمي، لا بأس، لن يضرنا مزيد من التجارب.

لقد مرت عشرات السنين ورث خلالها أهل القرية نفس الاعتقاد في تلك الشجرة، تلك التي ضربت جذورها في الأرض وعظمت وتشعبت، تمامًا كما ضرب اعتقادهم فيها جذوره في قلوبهم وتشعب في أوصال كيانهم.

هي ذات الشجرة يراها الناظر قد علقت عليها الثياب، هذا يلتمس الشفاء، وهذه تلتمس الإنجاب، يتمرغون في أصلها، ويحملون معهم شيئًا من أوراقها، بل حتى في معارك الثأر بين العائلات كانوا يذهبون إليها قبلها يلتمسون البركة والنصر.

شبكة الدمار

وفي القاهرة كان جمع من رجال قد تباينت أعمارهم يجتمعون في طابق لإحدى الأبنية السكنية، يتوسط الجلسة رجل حاد النظرات كثيف الحاجبين يرتدي عمامة سوداء يقول لمن حوله:

وكما أشرتُ في آخر لقاء، لم يعد لنا من وسيلة لبث أفكارنا إلا اختراق الصوفية، نروج لمعتقداتهم وأفكارهم، ومن خلال ذلك نسرب للناس أفكارنا ومنهجنا نحن، مستغلين المساحة المشتركة بيننا وبين المتصوفة، وهذا يستلزم...

قاطعه أحد الحضور: سيدي، ولماذا لا نقوم بنشر مذهبنا مباشرة دون اللجوء لهذا؟

أجاب صاحب العمامة السوداء: أولًا هذه أوامر أصحاب الرأي هناك، فنحن يا بني نسير وقف رؤية واضحة، لا نتحرك بعشوائية.

ثانيًا: لقد أثبت التاريخ أن مذهبنا لا يصلح للانتشار في مصر بصورة مباشرة، المجتمع المصري لن يتقبله، وخير مثال على ذلك إخواننا الفاطميون، حكموا مصر في حقبة من الحقب، ولم يستطيعوا فرض مذهبهم في ربوعها وبقيت على مذهب النواصب كما هي.

سأل آخر: ولم الفكر الصوفي بالذات يا سيدي؟

أجاب: لأننا وهم نشترك في أمور منها محبة آل البيت وتعظيمهم، فيسهل خلط أفكارنا بأفكارهم، ولن نجد عناءً في أن نستميلهم إلينا.

وهذا أيها الرجال يستلزم نشر أفكارهم وعقائدهم، وبالمناسبة سوف يتم تأجيل الاجتماع الدوري لمدة شهرين تحسبًا لأي مراقبة أمنية.

ثم هَبَّ واقفًا وقد بدت نواجذه من شدة التبسم وهو يقول: وأبشركم بأن شبكتنا السرية قد امتدت لتشمل جميع محافظات مصر.

انفض اللقاء وخرج المجتمعون واحدًا تلو الآخر على فترات، وجلس رجل يدعى «موسى» يقطن تلك القرية السالفة الذكر، توجه بسؤال إلى صاحب العمامة السوداء:

سيدي، وماذا بشأن تلك الشجرة التي أخبرتك عنها في قريتي؟

أجاب: عليك بنسج قصص وهمية بشأنها، عن انتفاع الناس بها، وتحقق المعجزات ببركتها، وقم أنت ورفاقك ببثها في الآفاق حتى يتعلق الناس بها أكثر فأكثر، ومن ثَمَّ تروجون لأفكار المتصوفة وتدعمونها، والباقي قد تحدثنا عنه في اللقاء.

استطرد: أعلم أنه طريق طويل، ولكنه الأوحد.

ابتسم موسى وقد التمعت عيناه وعزم على أن يجعل ذلك الكلام محل التنفيذ، حتى يتمكن ورفاقه من نشر معتقداتهم التي لا يدخر جهدًا من أجل التضحية في سبيلها بحياته.

صوت مختلف

في مسجد القرية الكبير كان الإمام يلقي درسه الأسبوعي على مسامع الناس، حيث يحظى الخطباء والوعاظ بمكانة عظيمة لدى أهل القرى وفي نهاية اللقاء وردت بعض الأسئلة للشيخ، كان منها ما ألقاه «صلاح» ذلك الشاب الجامعي الذي تبرق عيناه بالحماس:

يا شيخ، كيف يعتقد الإنسان النفع في شجرة لا تملك لنفسها شيئًا؟

علت همهمات متواصلة من رواد المسجد تنم عن اعتراض وسخط، فأسكتهم إمام المسجد بإشارة منه وهو يجيب الشاب: يا ولدي لو اعتقد الإنسان في حجر لنفعه.

تعالت صيحات التكبير دلالة على الإعجاب بكلام الشيخ، ولكن لم يكن لكلامه ذات الوقع في نفس الشاب والذي عارض ما يسمعه بحماسة شجاعة:

يا شيخ، كيف يُودِعُ الله البركة في شجرة والإنسان هو الذي غرس غراسها وبالماء رواها، أيلتمس البركة في شيء قام عليه ورعاه؟!

عادت الهمهمات مرة أخرى ونطق هذه المرة أحدُ الشيوخ المسنين: ومن أنت حتى تصحح المعلومة للشيخ؟ لقد وجدنا الآباء والأجداد على ما يقوله لك، لماذا تشرد برأيك عنا دائمًا؟ أم تريد أن تكون كما يقال: خالف تُعرف؟

قام الشاب وهو يقول بعصبية: لأن الله خلق لي عقلًا، وفائدة العقل أن أفكر به، لا أن أسلمه لكل من يقول كلمة بدون سند أو دليل، ولم ولن أكون إمعة، ثم أشاح بوجهه عنهم وتركهم وانصرف.

الشيخ مبتسمًا: رفقًا بالشاب يا رجال، أنتم تعلمون حماسة الشباب، لا ريب أنه سوف يعود إلى صوابه، فترفقوا به.

ماذا يعني بكلمة «إمعة»؟ همس بها أحد الحاضرين في أذن صاحبه، والذي تدلى لسانه يفكر في معناها، ثم أجاب: بالتأكيد شيء سيئ.

الوافد الجديد

جلس صلاح في شرفة منزله مسندًا ذراعيه على جدارها شارد الذهن، ولم ينتزعه من شروده سوى تلك اليد الحانية التي شعر ببردها على ذراعه.

اعتدل صلاح في أدب جم أمام والده الذي أطلت من وجهه ابتسامة عذبة وهو يقول: فيم تفكر يا طبيب المستقبل؟

ابتسم صلاح بدوره وهو يقول: ما زلت في بداية العام الدراسي الأخير يا والدي وأنت تصر منذ التحاقي بكلية الطب على مناداتي بالطبيب.

ضحك الوالد قائلًا: إن شاء الله يا ولدي، ستصير طبيبًا متميزًا، فأنت بفضل الله تعالى تجمع بين الذكاء، والفطنة، والشفقة، والرحمة، والشعور بالمسئولية، وهذه أهم صفات الطبيب

الناجح، ثم استطرد الوالد: لم تجبني على سؤالي يا دكتور، مالي أراك شارد الذهن كثيرًا في هذه الأيام؟

زفر صلاح بهدوء وهو يقول: لا شيء يا أبي سوى تلك الخرافات التي امتلأت بها عقول الناس في قريتنا، لست أدري كيف قادتهم عقولهم إلى الاعتقاد في شجرة لا تنفع ولا تضر، فلا الشرع يقر ذلك ولا العقل والمنطق.

الوالد: الجهل يا ولدي، الجهل قد استحكم فيهم، أومأ صلاح برأسه قائلًا: لا شك يا والدي، والذي يزيد الأمور سوءًا أن يقر بهذه الجهالات من يتصدى لتوجيه الناس وتعليمهم.

الوالد: لعلك تقصد الشيخ سعيد، أجاب صلاح: نعم يا والدي أقصده، تابع الوالد حديثه: لديك حق فيما تقول يا صلاح، فمما يؤسف له حقًّا أن يكون أهل العلم أنفسهم متأثرين بهذه الخرافات.

صلاح: أحمد الله يا أبي على سعة علمك، وأتخيل لو لم تحصل على ليسانس الشريعة والقانون من القاهرة وتتواصل مع أهل العلم ماذا سيكون حالنا اليوم؟ ربما كنا نعلق ثيابنا على شجرة الغريب.

ضحك الاثنان بعد عبارة صلاح، والذي انتبهت حواسه فجأة وكأنه قد تذكر شيئًا، وبالفعل قال: بالمناسبة يا أبي سمعت أن هناك إمامًا جديدًا للمسجد الكبير.

الوالد: سمعت بهذا أيضًا، وأتمنى أن تعين وزارة الأوقاف هذه المرة إمامًا ينتشل الناس مما هم فيه من جهل، والآن فلتدخل لإنني نويت أن أعد لكم الشاي بنفسي، وسترى أنني أعده أفضل من والدتك.

صلاح وهو يصيح بأعلى صوته: ماذا تقول يا أبي؟ أمي لا تحسن إعداد الشاي؟!

أمسك الوالد عصاه وهرول وراء ولده الذي فر بعد كلماته، في جو من المزاح والألفة الأسرية.

وفي الوقت ذاته كان شابٌ في الثلاثين من عمره، يظهر على مُحيَّاه الوقار، يخرج من بوابة فرع وزارة الأوقاف بمحافظة قنا، وقد تسلم خطابًا تكليفيًّا بالعمل كإمام وخطيب للمسجد الكبير في القرية السالفة الذكر.

وكان الشيخ الشاب قد تناهى إلى علمه شأن تلك القرية وأحوال أهلها وما هم عليه من جهل ووقوع في الخرافات، وعلى الفور سارع بتقديم طلب لنقله لمسجد تلك القرية.

ولقد كان لسمعته الطيبة في الوزارة أثر بالغ في قبول طلبه، فلم يكن الرجل يسعى لمجرد التكسب، وإنما كان صاحب رسالة يريد أن ينشر نور العلم في الآفاق ويزيل به آثار الجهل التي رانت على حياة الناس.

شياطين الظلام

جلس المدعو موسى ورفاقه على مقهى القرية، فمال على أذن أحدهم هامسًا: هل فرغ جابر من إعداد الجهاز للعمل؟ أجاب رفيقه: نعم، وبقيت عشر دقائق بالتمام ويتم البدء، فسأله موسى: المهم أن يقوم بإطفاء الجهاز وإخفائه سريعًا بمجرد إصدار الإشارة.

أجاب رفيقه وهو يتلفت حوله: لا تقلق يا موسى، كل شيء سوف يسير وفق الخطة الموضوعة.

مضت عشر دقائق جاء بعدها أحدهم يلهث في فزع ودهشة، وهو يقول بأعلى صوته على مسامع رواد المقهى: لقد رأيته، رأيت الغريب على الشجرة، رأيته.

اجتمع الناس حول ذلك الرجل تكتنفهم الدهشة وهم يستوثقون من حديثه، فتدخل موسى متصنعًا الدهشة: لقد صدقت روايات وحكايات الأجداد إذًا.

سأله أحد الشباب: أي حكايات يا أستاذ موسى؟ أجابه قائلًا: تناقل الآباء حكايات عن ظهور الغريب في الشجرة، وأنه قد ظهر لبعض الناس أثناء سيرهم ليلًا، وها هو سعيد قد رآه الآن.

واصل سعيد إبداء دهشته وهو يقول: تعالوا معي لكي تروا بأنفسكم صدق كلامي.

موسى: نعم لابد وأن نرى بأنفسنا، هيا يا رجال.

انطلق الجميع مسرعين إلى أطراف القرية حيث تقبع شجرة الغريب، وبالفعل لاحت صورة من بعيد تمثلت في الشجرة، كانت صورة رجل يرتدي ملابس غريبة، لا تمت لعصرهم بصلة، وظلوا ينظرون بحسب ما تسمح به الرؤية من المسافة البعيدة.

قرر بعضهم الاقتراب من الشجرة في حذر، وما كادوا يخطون خطواتهم الأولى التي بدت متثاقلة، حتى أطلق موسى إشارة من خلال هاتفه الجوال، وعلى الفور اختفت الصورة فوقف الجميع كلٌّ في مكانه يكتنفهم الظلام والذهول.

سعيد: هل رأيتم بأعينكم ما رأيت؟ صدقتم الآن؟

موسى وهو يشير بيده بحركة مسرحية: وكيف نشك بعد ذلك يا سعيد في بركة هذه الشجرة وأسرارها، لم يعد لأحد مجال لإنكار ذلك، قالها وهو يرمق الواقفين بطرف عينه وقد بدت على وجوههم جميعًا الدهشة لما رأوا، وهم يقولون: نعم يا موسى صدقت، لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

صاح أحدهم: ومن قال أن من بيننا من ينكر بركات الشجرة وأسرارها؟!

سعيد وهو يمط شفتيه ويهز كتفيه: صلاح مثلًا.

أحد الواقفين بحماس: رأيه يحتفظ به لنفسه، ليس له شأن بنا، هو هكذا دائمًا يسير على خلاف الناس، دعكم منه، ليس وحده الذي دخل الجامعات، فهذا موسى وغيره من شباب القرية ومع ذلك يقتنعون ببركات الشجرة.

آخر: لأنهم عقلاء بالفعل.

الجميع: نعم، إنهم عقلاء.

وفي الصباح كانت القرية بأسرها قد سمعت بما حدث في تلك الليلة، ولقد كان لهذه الواقعة أثر عظيم في توافد الناس على شجرة الغريب للتبرك بها، وازداد يقينهم بها، تمامًا كما دبر شياطين الظلام.

منبر الحق

جلس الناس في المسجد الكبير بالقرية، وهم ينتظرون أن يخرج عليهم الإمام الجديد للمسجد، وكلهم في ذهنه أن يعقد مقارنة بينه وبين سلفه.

«تفضل يا مولانا» استدار المصلون إلى صاحب الصوت والذي لم يكن صاحبه سوى مقيم الشعائر في المسجد وهو يصطحب الإمام الجديد إلى حجرته، وقد جعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض وهم يتهامسون.

فلم يعتد الناس في القرية أن يكون إمام مسجدهم شاب من الشباب، كانت الصورة التي ألفوها في إمامهم هو ذلك الرجل الذي اشتعلت رأسه ولحيته شيبًا، أو يمسك بعصا تدعم رجليه الضعيفتين في سيره.

مرت دقائق أعقبها ظهور ذلك الشيخ الشاب «بدر»، والذي ارتقى المنبر ليخطب فيهم الجمعة، وما إن انطلقت كلمات الأذان حتى فوجئ المصلون بكلمات نورانية تخرج بأسلوب شيق سلس لم يدع مجالًا لأحد منهم لأن تأخذه سِنَة أو غفلة.

طرق الشيخ المفوه على قضية الاتباع، اتباع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يحوم حول حديث النبي ﷺ: **(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي)**[1].

ولم يتطرق إلى الحديث عن الخرافات والأباطيل المنتشرة في القرية، ولكنه كان يضع حجر الأساس الذي سيبني عليه كل جهوده الدعوية.

كما أوضح أن معنى الإسلام هو الاستسلام لله تبارك وتعالى، وأنه لا قول بعد قول الله ورسوله، ينطلق من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، (٢٠٨٣٣).

ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وساق في هذا المقام نماذج عظيمة من سير أنبياء الله تعالى وصحابة النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان، وصالحي هذه الأمة.

وبعد الانتهاء من الصلاة أقبل المصلون يرحبون بالشيخ بحرارة ومودة، ويهنئونه على ذلك المستوى غير المعهود في خطبة الجمعة لهذا المسجد، كما دعا له الشيوخ الكبار أن يبارك الله في لسانه الفصيح الناطق بالحق.

وأما صلاح فقد تهلل وجهه فرحًا، وهنأ الإمام، ودعاه إلى منزله بعد أن مد بساط الحديث معه، إلا أن الشيخ قد اعتذر بلطف وأدب، على أن يلبي الدعوة في وقت لاحق، فانطلق صلاح إلى منزله فرحًا يحدوه الأمل في أن يجري الله الخير على يد هذا الإمام الجديد.

البرهان الأعمى

على سريره كان الأستاذ عبد الرحمن الموظف بالشهر العقاري بقنا يئن من ألم الكلى، والذي أصابه منذ عدة سنوات، وما إن خفَّت وطأة الألم قليلًا حتى استقبل طرقات على الباب، دخل على إثرها ابن عمه وصديقه «شوقي» أتى لكي يطمئن عليه في نوبة مرضه هذه.

جلس بجانبه وتجاذبا أطراف الحديث حول المرض والعلاج والأطباء، فإذا بالأستاذ عبد الرحمن يسمع من ابن عمه ما ثارت به ثائرته: لماذا لا تجرب شجرة الغريب يا عبد الرحمن؟

نزلت الكلمة كالصاعقة على رأس عبد الرحمن، وهبَّ كأنه نشط من عقال وتناسى مرضه، قائلًا في انزعاج: ماذا؟ تريدني أن أقلد هؤلاء الجهلة، ماذا سيقول عني أبنائي وجيراني والناس جميعًا؟ أرمي بالتعليم والثقافة عرض الحائط وأستجيب لهذه الترهات؟ هل فقدت عقلك يا شوقي؟

شوقي: هدئ من روعك يا صديقي، لقد سمعت فقط بتعافي من جربوا تربتها وأغصانها من أمراضهم، وأحببت أن تجرب مثلهم، لكن لا عليك كأنك لم تسمعها يا ابن عمي.

قضيا الرجلان ساعة من الزمن يتحدثان في مستقبل أبنائهما، وأحوال العائلة، حتى استأذن شوقي للانصراف.

وما إن خرج من منزل الأستاذ عبد الرحمن حتى دخلت عليه زوجته والتي التقطت طرفًا من حديثهما فهتفت: وماذا في الأمر يا عبد الرحمن؟ جرب لن تخسر شيئًا؟

عبد الرحمن: هل جننت أنت أيضًا يا رضوى؟ تريدين من «عبد الرحمن مخيون» والذي هو على وشك أن يكون مديرًا للشهر العقاري أن يقوم بهذه التفاهات؟! ماذا ألم بك؟ هل جننتِ؟!

يا عبد الرحمن كفى عنادًا، أنسيت أنها كانت سببًا في إنجاب زوجة رجب بعد سنة من الذهاب والإياب إلى الأطباء؟ أليس في هذا برهان على صحة ما أقول بشأن شجرة الغريب؟

قاطعها عبد الرحمن وقد استشاط غضبًا: كفى لا أريد أن أسمع هذا الكلام في بيتي مرة أخرى، هل فهمتِ؟ لا أريد أن أسمعه.

خرجت الزوجة وهي تتمتم بكلمات خافتة، تاركة عبد الرحمن في ثورته، وقد أمسك بجانبه حيث عاوده ألم الكلى.

في الوقت ذاته كان رجب وأهل بيته في سعادة تغمرهم جميعًا بعد أن ولدت زوجته صبيًّا أدخل عليهم البهجة بعد غياب، فأقاموا احتفالًا كبيرًا من أجل ذلك ودعوا إليه الأهل والأقارب.

وفي مكان اجتماع الرجال للاحتفال كان الجميع يهنئ «رجب» بمولوده الأول.

رجب: الحمد لله على هذه النعمة، والبركة في شجرة الغريب، أسأل الله ألا يحرم أحدًا من الولد.

أحد الحاضرين: بالتأكيد يا رجب لم يقصدها أحد إلا وقد قضيت حاجته.

آخر: لقد كانت تجارتي كاسدة، ودلني أحد الأفاضل على شجرة الغريب، فما هي إلا أربعة أشهر حتى فتحت علي الأرزاق من حيث لا أدري والحمد لله.

رجب: وبعد كل هذه الأدلة يأتي من هم أمثال الفتى صلاح والأستاذ عبد الرحمن، ويقولون أنها خرافات، ضحك الجميع بصوت مرتفع، فقد كان كل منهم في قرارة نفسه يريد برهانًا من غيره وقد كان.

الجريمة

شخص ما يتسلل في الظلام الدامس إلى أطراف القرية، يتلفت يمينًا وشمالًا خشية أن يراه أحد، ولم ينس أن يتلفع بعباءة سوداء تجعل من يراه من بعيد لا يعرف هويته.

اقترب الرجل من شجرة الغريب يبغي تعليق شيء من ثيابه عليها كما تعود أصحاب الحاجات، ويأخذ شيئًا من تربتها يستشفي به، إلا أنه قد استوقفه صوت تناهى إلى سمعه من مكان منحدر خلف الربوة التي تشخص فيها الشجرة، فتسمر في مكانه عندما ميز أصحاب الأصوات:

موسى: افهموني، لقد آثرت أن نجتمع في هذا المكان في جنح الليل لأنه من المستحيل أن يرِد على هذا المكان أحد في هذا الوقت، فما نتحدث فيه اليوم ينبغي الاحتياط له حتى لا ينكشف تنظيمنا السري.

أثارت الكلمات فضول الرجل المنصت ولهفته للتعرف على بقية الحوار، فأصغى سمعه:

سعيد: يا أستاذ موسى أرى أنك تبالغ في السرية والاحتياطات، نحن ننفذ الخطط بدقة متناهية يستحيل معها انكشاف أمرنا، هل نسيت أمر الصورة التي رآها الناس ولم يدركوا أنها صورة وهمية صنعناها نحن بفضل التقنية العالية التي زودنا بها السيد؟

اتسعت حدقتا الرجل وهو يواصل الإصغاء في انتباه وقد نسي ما جاء لأجله:

موسى: نعم يا سعيد نحن ننفذ بدقة وسرية ولكن لن يضرنا مزيد من الحرص والسرية، أنتم تعرفون خطورة انكشاف شبكتنا، ولذلك يؤكد القادة على توخي الحرص والحذر في كل صغيرة وكبيرة.

وتابع موسى: هناك بعض التعليمات بخصوص إقامة الطرق الصوفية في القرية وتشجيعها، ومن ثم اختراقها ونشر أفكارنا من خلالها.

تدخل أحد أعضاء الفرقة الجدد: ولم نتخذ الفكر الصوفي ستارًا؟ لماذا لا ندعو مباشرة لأفكارنا؟

ضغط موسى على أسنانه وهو يقول: حسنًا، بما أنك قد التحقت مجددًا بالفرقة فسأعيد ذكر ما يعرفه زملاؤك: طبيعة المجتمع المصري لا تقبل النشر المباشر لأفكارنا، وهذا ثابت بالتاريخ، وأقرب الشرائح لدينا في مصر هم الصوفية، والدليل على ذلك أن أقطاب التصوف وأعلام الصوفية المعروفين كالبدوي والدسوقي وغيرهما قد جاءوا مصر خصيصًا لنشر أفكارنا؟

كانت أهمية الحديث تتصاعد لدى الرجل الذي يتصنت على موسى ورفاقه، وكان في شغف لمعرفة المزيد من هذه المعلومات الخطرة، ولكن في هذه اللحظة التي وصلت إليها عبارة موسى الأخيرة حدث ما لم يكن بالحسبان.

دق جرس الهاتف الجوال في جيب الرجل، الأمر الذي جعل الفريق بأكمله ينتفض من مكانه إلى مصدر الصوت، والتفوا حول صاحبه، وكانت المفاجأة.

موسى: الأستاذ عبد الرحمن؟ ما الذي أتى بك إلى هنا.

عبد الرحمن وهو يضغط على أسنانه في غضب: بتقدير الله حتى أكشف ألاعيبكم القذرة للناس، إلى أي جهة تنتمون؟ أخبروني، سوف أفضح أمركم، سأبلغ الشرطة على الفور.

نظر الجميع بعضهم إلى بعض في وجل وصمت، شقه صوت سعيد: ما الذي سمعته يا أستاذ عبد الرحمن؟

عبد الرحمن: سمعت كل شيء أيها الخونة، إلى حساب من تعملون؟ سوف أفضحكم على رؤوس الأشهاد، ولم يكد يكمل عباراته حتى هجم عليه اثنان من الخلف يكبلان حركته، وكمم الثالث فم الرجل بمنديل حتى لا يصرخ.

موسى بسخرية: نعم صدق كل ما سمعته يا عبد الرحمن، واقعة الشجرة كانت حيلة منا حتى يغتر السفهاء أمثالك بها، الذين يعلقون ثيابهم على الشجرة للاستشفاء.

قالها موسى وقد التقط من تحت قدمي عبد الرحمن ثيابه التي سقطت منه، فرفعه موسى مستطردًا: تمامًا كما جئت أنت بهذه الثياب في جنح الليل.

أطرق عبد الرحمن برأسه خجلًا وهو مكمم الفم، وود لو أطلقوا له العنان لكي يصرخ وينعي عقلًا سلمه للأوهام.

تابع موسى: أنت غريب يا عبد الرحمن عن هذه المجموعة، وهأنت قد كشفت أمرنا، ثم رسم على وجهه علامات الأسى وكأنه يؤدي دورًا مسرحيًّا وهو يقول: أفدني يا صديقي، ماذا تفعل لو كنت مكاننا.

نطق بهذه الكلمات ثم تبدلت معالم وجهه الذي حمل كل الشرور، واقترب من الأستاذ عبد الرحمن ببطء في ظل سكون الليل وصمت الجميع.

أما عبد الرحمن فقد اتسعت حدقتاه إلى آخرهما في فزع، وهو يرى شيئًا يلتمع في الظلام على نور القمر، فجعل يطلق صيحات مكتومة، وهو يجاهد ليتخلص من أسرهم ويهز نفسه بعنف يمنة ويسرة، وما هي إلا ثوان معدودة حتى غرس موسى خنجر الغدر في قلب الرجل البريء.

وقف الجميع برهة لا يتكلمون، فشق موسى صمتهم بقوله: هيا، ماذا تنتظرون؟ احفروا له حفرة وعمقوها قدر استطاعتكم، وأنت يا سعيد قم بتكسير هاتفه الجوال بعد تمزيق الشريحة.

سارع الفريق لاستكمال جريمتهم وطمس معالمها خلف الربوة الرملية التي توجد بها الشجرة، شجرة الغريب.

إشارة يفهمها اللبيب

(لقد كان حب الصحابة لرسول الله ﷺ شيئًا تعجز الكلمات عن التعبير عنه، فإذا توضأ تسابقوا إلى ما يتساقط منه من ماء الوضوء، وإذا تنخم لم تقع نخامته على الأرض بل في كف أحدهم، يلتمسون البركة في آثار الرسول الكريم.

لقد أُتي النبي ﷺ بقدح فشرب منه وعن يمينه غلام أصغر القوم والأشياخ عن يساره فقال: **(يا غلام أتأذن أن أعطيه الأشياخ؟)** فقال: ما كنت لأوثر بفضل منك أحدًا يا رسول الله فأعطاه إياه[1].

حتى الغلام الصغير يحرص على آثار النبي ﷺ من فرط محبته له، يلتمس البركة فيها، لأنها آثار من؟ آثار خير من وطأت قدماه الثرى، آثار من وضع الله تعالى فيه البركة).

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب في الشرب ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة مقسومًا، (٢٢٢٤).

كان هذا مقطع من خطبة رائعة عن محبة الرسول ﷺ ألقاها الشيخ "بدر"، وقد تأثر بها الجميع، وذرف بعضهم الدموع، وتفاعلوا مع الخطبة أيما تفاعل، وبعد الصلاة استوقف الشيخ المصلين قبل أن يغادروا المسجد، بغرض التعقيب على موضوع الخطبة، حتى يكون المجال مفتوحًا للناس لطرح الأسئلة وهو ما أراده الشيخ:

(فليعلم الجميع أن التبرك بآثار النبي ﷺ جائز شرعًا، وقد أقر ﷺ الصحابة على ذلك، ولكنه أمر خاص به ﷺ، فلا يجوز التبرك بآثار الصالحين غيره).

تدخل أحدهم: ولماذا يا شيخنا، ما الذي يمنع التبرك بآثار الصالحين غيره؟

أجاب الشيخ: لأن الله تعالى اختص بذلك نبيه وجعل في ذاته البركة، وأقر النبي ﷺ أصحابه على التبرك به وبآثاره يوم كان حيًّا وأذن لهم به، أما غيره ﷺ فمن يقرنا على التبرك بهم وقد انقطع الوحي؟!

جعل يتفرس في وجوههم لقراءة آثار الكلام عليها، ثم استطرد مبتسمًا: لذلك لم يتبرك الصحابة ولا التابعون مثلًا بآثار أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي وغيرهم من صحابة النبي ﷺ، مع أنهم أحرص الناس على الخير، بل إن عمر الفاروق ﷺ في بعض الفتوحات عمَّى قبر النبي "دانيال" حتى لا يتبرك الناس به.

والصحابة رضوان الله تعالى عليهم لم يتبركوا بالمواضع التي كان النبي ﷺ يجلس فيها، فلم نسمع أن الصحابة كانوا يتبركون مثلًا بغار حراء الذي كان النبي ﷺ يتحنث فيه قبل نزول الوحي، وأما بعد وفاته ﷺ وانعدام آثاره فلا يجوز التبرك والتمسح بقبره.

نظر الناس بعضهم إلى بعض في استنكار، فتدخل أحدهم قائلًا: كيف يا شيخ؟ أليس قبر النبي ﷺ بقعة مباركة، وفي حدود علمي أن عمر طلب أن يدفن مع صاحبيه؛ النبي ﷺ وأبي بكر.

أعجب التعليق جموع المصلين فتبسم الشيخ "بدر" وقال في هدوء: أحسنت في عرضك للكلام، ولكني أجيبك بأن عمر فعل ذلك طلبًا في الصحبة وليس طلبًا للبركة، ودليلي ما سقته أنت: أن يدفن مع صاحبيه، أي كانت الصحبة هي المطلوبة، وإذا كان فعله التماسًا للبركة فكيف تؤثره عائشة على نفسها وهي التي كانت ترجو أن تدفن مع زوجها وأبيها، هل تؤثره بالبركة والطاعة على نفسها؟ لم يكن هذا من هدي الصحابة أن يؤثروا أحدًا على أنفسهم في طاعة الله، فقد كانوا سباقين مسارعين في الخيرات متنافسين فيها.

هز الناس رؤوسهم في إعجاب من ذلك الرد الذي تقبله العقول، فتابع الشيخ: وأسألكم سؤالًا: أي الناس أحرص على الخير والطاعة والبركة صحابة النبي ﷺ أم سائر الناس في شتى العصور؟ أجاب الجميع في صوت واحد: الصحابة بالطبع.

الشيخ بدر: أحسنتم، فأسألكم سؤالًا آخر: هل سمعتم بأن صحابة النبي ﷺ كانوا يتمسحون بقبره ويلتمسون البركة فيه؟ أتحدى أي إنسان أن يأتي بما يدل على ذلك من الآثار

الصحيحة، فلذلك التبرك بالنبي ﷺ في حياته بدعائه بوضوئه، بشعره ...، أما بعد وفاته وزوال آثاره فلا، وأما الصالحون غيره فيجوز التبرك بمجالستهم ودعائهم ووعظهم.

خرج الناس بعد اللقاء وهم يتناولون موضوع الخطبة والتعليق عليها، ما بين مؤيد ومقتنع – وهم كثر – وبين رافض متهكم، بينما كان موسى ورفاقه بالطبع من أبرز المعارضين.

كان إثارة هذا الموضوع مجرد إشارة من الشيخ "بدر" لشيء آخر يرمي إليه، كانت إشارة يفهمها اللبيب.

المؤامرة

كان حديث القرية في هذه الآونة منصبًّا على الأستاذ عبد الرحمن الذي اختفى فجأة، ولم يدع أهله بالتعاون مع سكان القرية مكانًا إلا وقد بحثوا فيه، بل امتد البحث ليشمل مستشفيات وأقسام الشرطة التابعة لمحافظة قنا بكل مدنها وقراها، وبرغم هذا لم يتوصلوا إلى مكانه.

كانت أصابع الاتهام تشير إلى بعض أقاربه، لنزاع حدث بينهم على ميراث، إلا أن أحدًا منهم لم يمتلك دليلًا على ذلك.

وقاد الشيخ «بدر» حملة البحث بنفسه، فرفع ذلك أسهمه لدى سكان القرية رغم أنهم لم يعثروا على الرجل، ومع مرور الأيام ازدادت محبة الناس للشيخ الشاب، فصار يتصدر المجالس لحل مشكلات الناس، والإصلاح بينهم، ولم يعد هناك من عرس أو وليمة أو مناسبة سارة إلا ودعي إليها الشيخ «بدر».

أضحت القلوب تهفو إليه بحسن خلقه وصبره وحلمه وسعة صدره، وذلك الإخلاص في الكلمة الذي يتوسمه فيه كل من سمعه.

ولم يفت الشيخ بدر بطبيعة الحال أن يتفقد أهل عبد الرحمن، بل كان يمر على أعيان البلدة لجمع المال، وقام بافتتاح محل لتجارة المواد الغذائية، وعين فيه شابًّا براتب شهري، يمر عليه في نهاية كل أسبوع ويقوم بمراجعة الحسابات بنفسه، ثم يرسل الأرباح إلى أسرة الفقيد.

كان أهل القرية سعداء بذلك الشخص المعطاء إلا ثلة من الأشرار لم يرق لهم الأمر، كانوا يشعرون بأن هذا الشيخ في طريقه إلى تنوير الناس وهو بذلك يقف في طريق نشر مذهبهم، فلئن كان يحارب الخرافات فكيف سيفعل مع نشر مذهب كمذهبهم له أبعاده السياسية.

موسى: لقد بدأ القلق ينتابني فعلًا من ذلك الرجل.

أحد أعوانه: والعجيب أن الناس صاروا يودعونه الثقة المتناهية، لست أدري ماذا فعل بهم؟!

آخر: ولكن ألم تلاحظوا أنه لم يتحدث مطلقًا عن شجرة الغريب؟ برأيكم لماذا؟

موسى: إما أنه يتجنب الصدام مع أهل القرية، أو أنه يمهد لذلك بأحاديثه عن الأولياء والأضرحة.

سكت موسى برهة ثم التمعت عيناه بخبث وهو يستطرد: ولكننا لن نمهله.

أحد أتباعه: ماذا سنفعل؟

أجاب موسى في جزل: سنفجر موضوع شجرة الغريب في المسجد في درسه الذي يعقده مساء الجمعة، وأنتم تعلمون جيدًا ما الذي تعنيه شجرة الغريب لدى سكان القرية، قالها ثم انطلق ضاحكًا وقد شعر بأنهم ظفروا بالشيخ.

ابن القرية

اجتمع الشيخ بدر على مائدة الغداء في دار والد الدكتور صلاح، حيث إن العلاقة بينهم قد توطدت إلى حد بعيد، فلم يكن صلاح ووالده أمام رجل علم ودعوة في المساجد وحسب، ولكنهم وجدوا فيه شابًّا مثقفًا واعيًا معتدلًا واسع الأفق متحضرًا، لا يشعر أحد من الناس من كافة الشرائح بأية فجوة أو حاجز بينه وبين بدر.

والد صلاح: معنى كلامك يا ولدي أنك تقيم وحدك بعد وفاة والدتك، وليس لك أحد من العائلة إطلاقًا؟

بدر: نعم يا عم، لأننا في الأصل لسنا من سكان قنا، لقد كان جدي مسيحيًّا من القاهرة، ونزح إلى قنا بعد إسلامه وتزوج منها ولم ينجب سوى أبي، والذي تزوج من فتاة وحيدة، كانت هي أمي، ثم توفي وأنا في الثامنة من عمري، وأما والدتي فقد توفيت منذ عامين.

صلاح: ما أروع قصة كفاحك يا بدر، إنني أشعر أن الله تعالى قد بعث لي أخًا أكبر لم أكن أحلم بمثله في يوم من الأيام.

بدر: شعور متبادل يا صلاح، وعلم الله أنني أحببتكم وأود لو كنت من أبناء هذه القرية.

الوالد: تود؟ أنت بالفعل منها يا بني، لقد دخلت قلوبنا منذ رأيناك، اعتبرنا عائلتك وأهلك.

بدر: حديثك يا عم قد شجعني على أن أطلب منكم طلبًا أعرف أنه قد يكون كثيرًا عليّ.

صلاح: بالطبع يا بدر، أليس كذلك يا أبي؟

الوالد: بكل تأكيد يا ولدي، اطلب ما بدا لك.

بدر: إنني أطلب منكم يد كريمتكم «عفاف»، خيم الصمت على صلاح ووالده حيث لم يدر بخلدهما أن يطلب بدر هذا المطلب، إلا أنه شق صمتهما بقوله: لا أريد ردًّا الآن يا عمي، أعرف أنني غريب عنكم، ولست من عائلة مرموقة تليق بمصاهرتكم، غير أنني لن أجد فتاة أفضل من زهرة نشأت في ذلك البستان الطاهر.

أطرق برأسه برهة ثم رفعها مستطردًا: وإذا لم يقدر الله تعالى الارتباط بكم، فأرجو ألا يؤثر ذلك على علاقتي بكم، فأنتم بالفعل أهلي.

ابتسم والد صلاح قائلًا: بالفعل يا ولدي، ولكن امنحنا فرصة للتفكير.

انصرف بعدها الشيخ بدر، وترك الوالد وولده يتشاوران في هذا الطلب المفاجئ.

الوالد: ما رأيك؟

صلاح وهو يغمز بعينه: توكل على الله.

الوالد: هذا أيضًا رأيي، لكن يبقى رأي عفاف، ويبقى كذلك أن تذهب إلى قنا وتسأل عنه جيدًا في الأوقاف، وفي مكانه الذي كان يسكن فيه، هذه مسئولية يا صلاح كما تعلم لابد أن نقوم بها على أكمل وجه.

صلاح: حسنًا يا أبي سأفعل إن شاء الله.

عبق الماضي

حدق أهل القرية في تلك السيارة الفاخرة التي تقل زائرًا غريبًا، قد ارتدى نظارة شمسية تعكس مع ملامحه الشقراء صورة رجل من الوجهاء.

سأل ذلك الزائر الغريب عن بيت عمدة القرية، فاستقل أحدهم معه السيارة يقوده إلى حيث يريد، وما هي إلا دقيقتان حتى كان الغريب يقف أمام بيت عمدة القرية، والذي استقبل الضيف بحفاوة وكرم معهودين من أهل الصعيد، وما لبث أن عرَّفه الزائر بنفسه: دكتور أحمد منصور، باحث في التاريخ.

العمدة: أهلًا بك ومرحبًا، حللت أهلًا ونزلت سهلًا، البلدة بلدتك والدار دارك، ولكن هل من خدمة أستطيع تأديتها لك يا دكتور؟

دكتور أحمد: الأمر يتعلق بموضوع تاريخي بالغ الأهمية، ليس لي وحدي، ولكن لأهل القرية أيضًا.

العمدة: أي موضوع؟

الدكتور أحمد: دعني أحكي لك من البداية، منذ...

قاطعه العمدة قائلًا: معذرة، قبل أن تبدأ في حديثك هل يمكنني دعوة شخصين يسمعان معي ما تقول؟ هم من خيرة الشباب المثقف الواعي، وأحب في مسألة كهذه أن يكونا معنا.

مط الدكتور شفتيه قائلًا: بكل سرور، لا مانع لدي مطلقًا.

وما هي إلا نصف الساعة حتى كان بين أيديهما الشيخ «بدر»، والدكتور صلاح الذي حصل حديثًا على بكارليوس الطب، وعمل في مستشفى بقنا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ليلًا، عندما جاء الشابان إلى دار العمدة، وتم التعارف بينهما وبين الزائر الغريب.

استأنف الدكتور حديثه مع الجميع: في عهد محمد علي باشا، وتحديدًا عام ١٨١١م، حدثت مذبحة عظيمة تسمى مذبحة القلعة.

هز الشابان رأسهما دلالة على معرفتهما بهذه الأحداث التاريخية جيدًا، فتابع الدكتور: دبرها محمد علي لخصومه من المماليك لكي يتخلص منهم قبل سفر ولده إلى الجزيرة للقضاء على دعوة محمد بن عبد الوهاب.

هذه المذبحة نجا منها البعض، كان من بينهم أحمد بك الخازندار، هنا قاطعه الشيخ «بدر»: عفوًا يا دكتور، معلوماتي أن الذي نجا منها مراد بك وفر إلى الشام، و...

قاطعه الدكتور بدوره: أحسنت، لكن هناك روايات تاريخية أخرى غير مشهورة، تفيد بأن هناك أميرًا مملوكيًّا يدعى أحمد الخازندار لم يشهد المذبحة حيث كانت زوجته تضع حملها، ولما علم بها فر إلى الصعيد وتحديدًا إلى قنا.

اتسعت عيون الجميع إزاء هذه المعلومة الجديدة، فتابع الدكتور أحمد: ولاحقته فرقة من جنود محمد علي باشا تريد القضاء عليه، بعدما فر مع زوجته ووليده في نفس يوم الولادة على حصان واحد، وماتت زوجته في الطريق، فعثرت قافلة تجارية على جثتها بعدما تركها الجنود لانشغالهم بمطاردة الأمير المملوكي، وقام رجال القافلة بدفنها كما أشارت الروايات التاريخية.

سأله العمدة: وماذا كان مصير أحمد بك هذا؟

الدكتور أحمد: بعد البحث والتدقيق، توصل الباحثون إلى أن أحمد بك قد وصل إلى قرية من ثلاث: القرية التي تقع قبلكم، والأخرى التي تقع بعدكم، ثم صمت برهة، ونظر في عيون الحاضرين قائلًا: وقريتكم هذه.

الدكتور صلاح: وهل توصلت إلى تحديد مكان نزوله؟

الدكتور أحمد: لا أخفيك سرًّا، لقد كان أمرًا بالغ الصعوبة، لأن الناس في هذه القرى لو كانوا يعرفون شيئًا عنه لحلت القضية، ولكن...

قطع حديثه صوت أحد الخفراء وهو ينادي عمدة القرية لاهثًا: حريق ضخم يا سيدي العمدة، حريق في مخزن الغلال قد امتد إلى البيوت المجاورة.

عذاب الضمير

دخل ذلك الرجل المقنع بعباءة سوداء على مصطفى، أحد أتباع موسى، والذي كان يغط في نومه، فربت على يده في عنف، فقام من نومه فزعًا يقول: من أنت؟ وماذا تريد مني؟

ضحك الرجل المقنع وهو يقول: ألا تعرفني يا مصطفى، ثم كشف عن وجهه، فتراجع مصطفى في ذعر وهو يقول: أنت؟ غير معقول، أنت...

أجابه المقنع: أنا ميت أليس هذا ما تريد قوله؟

مصطفى: أنا لم أقتلك، «موسى» هو الذي فعل، و«إبراهيم» و«عرفان» هما من قيدك، قاطعه الأستاذ عبد الرحمن: وأنت تسترت على الجريمة، ثم اقترب من مصطفى والشرر يتطاير من عينيه ووضع يده على رقبته وضغط بكل قوته، و...

أفاق مصطفى فزعًا من نومه وهو يمسك برقبته، وظل يلهث ويتنفس بصعوبة، وزوجته تهدئ من روعه، وهي تقول: الكابوس مرة أخرى يا مصطفى؟ أخبرتك ألا تكثر من الطعام قبل النوم.

سكتت برهة ثم تابعت في حذر: ولكنك تقول أثناء نومك في كل مرة لست أنا من قتلك، ماذا ترى يا مصطفى؟

صفعها مصطفى على وجهها وهو يقول: إياك أن تتحدثي بهذا الأمر، إنه مجرد كابوس، ارتاعت المرأة وهي تمسك بخدها قائلة: حسنًا، حسنًا لن أخبر أحدًا، إنه مجرد كابوس.

نهض مصطفى من فراشه ووقف في شرفة منزله وهو يحدث نفسه: متى سينتهي هذا العذاب؟ أحلام تلاحقني تكاد تقتلني، لم أعد أتحمل، لماذا يأتيني أنا بالذات، مع أنني لم تمتد يدي إليه.

ثم عض على أنامله فاستطرد: أيعقل هذا؟ القتلة ينامون ملء جفونهم، وأنا محرم علي أن أهنأ بنومي؟ ليتني لم أكن معهم، ليتني ما انضممت إلى هذه المجموعة المشبوهة، اللعنة على إغراءاتهم ووعودهم، يارب نجني مما أنا فيه.

فكر حائرًا ثم قال لنفسه: هل أعترف على نفسي وعليهم وألقى مصيري وجزائي؟ لا لا، مستقبلي ومستقبل أسرتي سيدمر، إذًا ماذا أفعل، ماذا أفعل؟

قطعه من الاستغراق في التفكير تلك النار التي تصاعدت من ناحية مخزن الغلال، وتناهى إلى سمعه صوت الناس يصرخون معلنين وقوع الحريق، فنزل مسرعًا دون أن يرتدي بقية ثيابه إلى حيث يذهب الناس.

وأمام مخزن الغلال والبيوت المجاورة التي نشب فيها الحريق، كانت ملحمة عظيمة من التكاتف والتلاحم والتعاون، سطرها أهل القرية في إنقاذ ساكني البيوت وإطفاء الحريق، ولقد

أبلى الشيخ بدر والدكتور صلاح بلاءً حسنًا في جرأة يحسدان عليها، واشترك معهم مصطفى والذي تفانى في بذل جهده بفدائية، وكأنه يكفر عن شيء من خطاياه بحق هذه القرية.

تمت السيطرة على الموقف تمامًا ولم تقع أي خسائر في الأرواح، فوجّه الشيخ بدر الشكر إلى مصطفى على جرأته وبذله قائلًا: من حسن حظ هذه القرية أن بها شبابًا مثلك يا مصطفى، يعرضون أنفسهم للخطر من أجل الآخرين، ويحافظون على أرواح الناس.

وقعت الكلمات على قلب مصطفى وكأنها تقريع وسباب لا مدح وثناء، وود لو صرخ أمام الناس بأنه مجرم، بأنه يدبر لهذه القرية سوءًا في الخفاء، لكنه قد اكتفى بالصمت دون أن يعلق بكلمة، واستدار قافلًا إلى بيته.

قلادة الأميرة

وفي الليلة التالية اجتمع في منزل العمدة كل من الدكتور أحمد الباحث التاريخي، والدكتور صلاح ومعهم الشيخ بدر، لكي يستمعوا إلى ما بدأه الدكتور من الحديث عن الأمير الملوكي الهارب.

الدكتور أحمد: لقد نزلتُ القريتين لعلي أتعرف على بعض المشاهد الأثرية، أو الأماكن التي تتعلق بها أحداث تاريخية، لكنني لم أجد في إحداهما سوى ضريحًا لرجل مات في منتصف القرن التاسع عشر، ووجدت في القرية الأخرى روايات متناثرة عن منزل لكاتب في ديوان ملك الصعيد همام بن يوسف قد فر إلى هذا المكان بعد وفاة همام، وقيل أنه عاش في ذلك البيت سنتين ثم مات.

الشيخ بدر: إذًا لم يبق سوى هذه القرية، أليس كذلك؟

ابتسم الدكتور أحمد وهو يقول: نعم، ولقد جمعت معلومات عن قريتكم هذه في تلك الجوانب، ولم أجد تذكارًا للماضي سوى تلك الشجرة التي تطلقون عليها شجرة الغريب.

اتسعت عيون الجميع في دهشة، فتدخل العمدة قائلًا: وما للشجرة بموضوع الأمير؟! إنها شجرة مباركة، لها منزلة كبيرة لدينا، ولها أسرار في أصلها.

سأله الدكتور أحمد: أي أسرار.

العمدة: سمعنا من الآباء والأجداد بأن رجلًا غريبًا قد نزل قريتنا عند تلك الشجرة والتي سميت باسمه، ويقال أنه كان من أولياء الله الصالحين أصحاب الأسرار، وأنه قد دَفَن في أصلها أسرارًا وأن اللعنة سوف تصيب كل من يحاول التعرف عليها.

فصارت هذه الشجرة مباركة، جربها الناس في الاستشفاء والتداوي والإنجاب والزواج وفي أمور كثيرة.

اتسعت عينا الدكتور أحمد وهو يفكر بعمق، أما الدكتور صلاح فقال: يا سيدي كيف تصدق هذا الهراء؟ لعله دجالًا أو رجلًا ليس في كامل قواه العقلية.

تهكم العمدة على حديث صلاح وأردف: دجال؟ الذي لا تعرفه يا صلاح يا ولدي أن ذلك الغريب يظهر من فترة لأخرى عند تلك الشجرة وكأنه يحذر مجددًا من الاقتراب من أسرارها، ولعلك سمعت بما حدث مع سعيد منذ فترة قليلة، لقد رأى ومعه عدد ليس بالقليل من أهل القرية ذلك الغريب يظهر على الشجرة، ثم تقول بأن هذا دجل؟!

كان الشيخ بدر يستمع بهدوء إلى الحديث، ودار في نفسه أن الوقت قد حان لكي يبدأ مع الناس في وأد هذه الاعتقادات المتعلقة بشجرة الغريب، فلقد ساءه تعلق الناس بها إلى هذا الحد، ورأى أنه مهد لهم بما يكفي في جانب التبرك بآثار الصالحين والتبرك بالأحجار ونحوه، وآن الأوان لكي يطرق هذه الموضوع الشائك لدى أهل القرية.

انتزعه من الاستغراق في تفكيره كلمات الدكتور أحمد وهو يقول: لو صح ظني قد يكون هذا الغريب هو أحمد بك الخازندار نفسه.

الدكتور صلاح: ألم تقل بأن الأمير المملوكي قد خرج هاربًا بصحبة زوجته وولده؟ فأين ذهب الرضيع؟

الدكتور أحمد: لم يعرف أحد عنه شيئًا، ليس هو فحسب، وأيضًا قلادة الأميرة جولنار.

انتبهت حواس الجميع بعد الجملة الأخيرة، فتدخل العمدة: أي قلادة؟

الدكتور أحمد: قلادة زوجة الأمير المملوكي أحمد الخازندار، قلادة كبيرة من الذهب الخالص منقوش عليها اسميهما معًا، وبحسب ما تناقله الناس عن جاريتها، أنها سمعت أحمد بك الخازندار قبل الهروب يحدث زوجته بإخفاء خريطة صغيرة الحجم في القلادة.

اتسعت عينا العمدة وهو يقول: أي خريطة؟

الدكتور أحمد: خريطة لكنوز وأموال أحمد بك التي كان قد خبأها قبل المذبحة، حيث كان يستشعر الخطر من جانب محمد علي باشا.

صمت الجميع فشق صمتهم كلام الدكتور أحمد: فلو كان الغريب هو الأمير، فإنه من المحتمل أن يكون قد خبأ القلادة في مكان الشجرة، وساعتها سيكون كشفًا تاريخيًّا هامًّا وسنعرف المصير المجهول لذلك الأمير.

ثم أردف في حماس: سعادة العمدة إنني أعرض عليك ثلاثة أرباع ذلك الكنز إن وجدناه، ولا شك أن ذلك قد يحدث نقلة بعيدة في أحوال قريتك.

تدخل العمدة في لهفة: وكيف سنعرف أنه هو الأمير أم لا؟

الدكتور أحمد: نحفر في أصل الشجرة.

هنا انتفض العمدة كالملدوغ وهب واقفًا: ماذا تقول؟ إياك أن تكرر هذا الكلام، سأعتبر أنني لم أسمع شيئًا، لك من الضيافة ثلاثة أيام، وبعدها لا شيء لك عندي. قالها العمدة تاركًا حجرة الضيافة التي أعدها للدكتور أحمد للمبيت فيها، بينما غرق الثلاثة في الصمت والتفكير.

استأذن بدر وصلاح من الدكتور أحمد للانصراف، دون أن يعلقا على موقف العمدة، لم تكن سوى نظرات صامتة تبادلاها والدكتور أحمد، وفي الطريق:

بدر: صلاح، لم تقل لي ما رأْي العروس، أرجو أن يكون القبول قد وُجد لديها مثلما حدث معي، رغم أنني قد جلست معها لدقائق معدودة في زيارة الخطبة.

صلاح: نعم يا بدر أبشر، لقد دخلت قلوب الجميع، لقد كنت أنوي أن أخبرك بأن أبي يدعوك بعد غد للكلام في تفاصيل الزواج.

بدر وقد استنار وجهه: على بركة الله.

الزوبعة

وفي درس مساء الجمعة، أمسك الشيخ بدر بعصا صغيرة، وهو يقول للحاضرين: هذه عصا مباركة، من يشتريها بعشرة آلاف جنيه؟

ضحك الجميع في وقت واحد، وهم يسمعون هذه الدعابة من الشيخ، إلا أنه بعدما تبسم أعاد عليهم الكلام، وقال لماذا لا تصدقوني أنها مباركة؟

تدخل أحد الحضور وهو يضحك: وما يدريك يا فضيلة الشيخ أنها مباركة؟

هنا تهلل وجه الشيخ وهو يصيح: أحسنت، سؤال رائع، لديك حق، ما الذي يدريني أنها مباركة.

كان موسى ورفاقه قد أتوا إلى اللقاء خصيصًا لكي يفجروا موضوع شجرة الغريب لإثارة الناس وتأليبهم على الشيخ بدر، إلا أنهم إزاء هذه المقدمة التي ابتكرها الشيخ، ظلوا صامتين يفكرون في هذا الكلام العجيب، وما المراد منه؟

لم يمهلهم الشيخ لمزيد من التفكير فاستطرد: هل تؤيدون سؤال أخيكم هذا؟

أجاب الجميع بصوت واحد: نعم، ما الذي يدريك أنها مباركة؟

أجاب الشيخ: البركة شيء يضعها الله حيث يشاء أليس كذلك؟ أجابوا: نعم.

فأردف الشيخ: والوسيلة لمعرفة موضع البركة يكون بالوحي من عند الله، أليس كذلك؟ أجابوا بصوت خافت وكأنهم يترقبون بوجل ما بعد هذه الكلمات: بلى.

هنا أخذ الشيخ نفسًا عميقًا وقال بهدوء باسم: إذًا يا أهل القرية الأحباب، ما الذي يدرينا بأن شجرة الغريب شجرة مباركة نلتمس فيها البركة، ونستشفي بتربتها، ونعلق عليها ثيابنا ابتغاء الرزق أو الشفاء أو الولد أو الزواج؟

صمت الجميع ونظر بعضهم إلى بعض، لا يدرون ماذا يقولون، إلا أن رجلًا منهم قال: هكذا أخبرنا الآباء والأجداد.

قال الجميع: نعم نعم.

أجابهم الشيخ: إذًا فلتعبدوا الأوثان.

تعالت الهمهمات باستنكار، فقال أحدهم: ماذا تقول يا شيخ؟

الشيخ: لقد كان أجدادكم الفراعنة في هذه المناطق يعبدون الأصنام، ويرون أنه بيدها كل الخير والشر، فلماذا لا تعبدونها كما عبدها أجدادكم؟

في ذلك الوقت كان موسى يهمس في أذن رفيقه سعيد: يا له من خبيث، لقد استطاع أن يمتص ثورة الناس بهذا الكلام المثير.

أحد الحضور: لأن ديننا نهانا عن ذلك، وديننا هو دين التوحيد، الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، نحن أهل لا إله إلا الله يا شيخ.

الشيخ: أحسنت، لا نعبدها كما عبدها أجدادنا، لأننا نحتكم إلى الدين، هو الحاكم على تقاليد الأجداد والآباء وليس العكس.

رجب: ولكن يا شيخ التجربة أثبتت ذلك، كثير منا جربها، وأنا منهم، لقد مكثت زوجتي عامًا كاملًا ولم تحمل بجنين، وبعدما جربنا الشجرة حملت بعدها بثلاثة أشهر.

الشيخ: ولماذا لم تحمل بعدها مباشرة؟

رجب: كل شيء بقدر الله.

الشيخ: أحسنت، كل شيء بقدر الله، وهذا كان ميعاد حمل زوجتك، فلماذا ربطت بين قدر الله وبين الشجرة كسبب؟ هل كنت تذهب بها للطبيب؟

رجب: نعم.

الشيخ: وما أدراك أنه ليس بسبب العلاج والطب؟ وعلى كل حال، تعالوا بنا نذهب إلى من يفصل بيني وبينكم في هذا الاختلاف.

قالوا: نعم، من ترتضي حكمًا يا شيخ؟

الشيخ: رسول الله ﷺ، هل تقبلون به حكما؟

صمت الجميع وبدا المشهد وكأنها صورة فوتوغرافية قد التطقت لهم، واكتنفتهم هالة من الخشوع والسكينة بعد هذه الكلمة، فقالوا: صلوات الله وسلامه عليه، ومن يأبى أن يحكم الحبيب ﷺ؟!

الشيخ: إن حبيبكم ﷺ كان يومًا مع أصحابه وفيهم من هو حديث عهد بالإسلام، فمروا على شجرة يقال لها: ذات أنواط، كان المشركون يتبركون بها، ويعلقون أسلحتهم عليها.

فقال حديثو العهد بالإسلام: اجعل لنا ذات أنواط كما أن لهم ذات أنواط، أتدرون بم أجابهم رسول الله ﷺ؟ قال: **(الله أكبر ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم)**[1].

خيم الصمت على الجميع، فالكلام يمس شغاف القلب بالحجة والدليل، ولكنه شيء ورثوه ومعتقد تربوا عليه، فبدأ الصراع يدب في عقولهم مما سمعوه.

قطع موسى صمتهم بعصبية: وماذا تقول في صورة الغريب التي ظهرت على الشجرة، أهذه أيضًا خرافات؟

فجَّرت تلك الكلمات نبرة الاعتراض لدى الناس من جديد، ولكن الشيخ قد باغتهم بالإجابة: لماذا لا يكون شيطانًا قد تمثل في تلك الصورة حتى يوهم الناس ويؤكد لديهم هذا الاعتقاد؟

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم، (٢١٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢١٨٠).

لم يكن ذلك الرد مرضيًا لهم بما يكفي، فبدأوا يخرجون تباعًا من المسجد وقد نشب في نفوسهم الصراع بين كلمات الشيخ وبين موروث الآباء والأجداد.

وأما موسى ورفاقه فقد التمعت عيونهم، وابتسموا في جزل، إلا واحدًا منهم كان مطرق الرأس قد ارتسمت علامات البؤس على وجهه، وبدا كأنه يحمل الجبال الراسيات على رأسه، إنه مصطفى.

بقي في المسجد الشيخ بدر والدكتور صلاح والذي قال لصديقه: وما العمل يا بدر؟ أجابه الشيخ وهو مستغرق في التفكير: لا تيأس يا صلاح، سيجعل الله بعد عسر يسرًا، علينا الجهد والبلاغ والتوفيق بيد الله سبحانه.

الرأي

«دعني، لماذا أنا بالذات؟ خذ ثأرك منهم».

مصطفى، مصطفى، كانت زوجة مصطفى توقظه من ذلك الكابوس الذي يعتريه في أغلب لياليه، ولا يدعه يهنأ بنوم، فقام منه فزعًا، وهو يبكي وينتحب.

الزوجة: مصطفى أنا زوجتك، أخبرني لو كان هناك سر في حياتك تخفيه، فأنا زوجتك، أم أولادك، ولن أرضى لك الضرر، ثم ربتت على صدره فهدأ نحيبه، وبدأ بكل الأسى والحزن والندم يقص عليها الحكاية منذ بدايتها.

وفي داره الفسيحة، كان العمدة يجلس مع الدكتور أحمد وأعيان القرية، عدد كبير من الناس قد اجتمعوا في ذلك المكان، ليستمعوا إلى الباحث التاريخي وهو يسرد عليهم ما ألقاه على مسمع العمدة والشيخ بدر والدكتور صلاح.

العمدة: وكما قلت لكم، القرار لكم، ولو صحت توقعات الدكتور أحمد، فسيصيبنا من هذا الأمر خير كثير.

تدخل أحدهم: وماذا لو لم تصدق توقعاته؟

قال آخر: ستصيبنا اللعنة التي أخبر بها الغريب كما ذكر الآباء والأجداد.

العمدة وهو يغمز بعينه في خبث: أو تصيب الذي يحفر فقط.

سأل أحدهم: سيدي العمدة ماذا تعني؟

العمدة وقد مال إلى الإمام في اهتمام: لن يقوم بالحفر سوى المتطوعون، أليس هناك من يقول بأن هذه مجرد خرافات؟

نظر في وجوههم مستطردًا: إذًا فهذه فرصة ليثبتوا لنا صحة كلامهم، فإن فعلوا كنا معهم في الفضل سواء، وعمَّ الخير على الجميع، وإن أصابهم أذى كنا بمعزل عنه.

سأل آخر: من تقصد بقولك يا سيدي العمدة.

العمدة: الشيخ بدر، والدكتور صلاح، ولعل معهم كذلك الدكتور أحمد، قالها ثم انفجر مع الآخرين في الضحك.

الدكتور أحمد وقد التمعت عيناه من الفرح: هذا هو الرأي.

الجميع: نعم هذا هو الرأي.

مائدة الشيطان

أرخى الليل سدوله، وخيم الظلام على القرية التي أخلد سكانها إلى النوم، إلا أن قلوبًا مظلمة هي أشد سوادًا من دجى الليل كان أصحابها يجتمعون على مائدة الشيطان.

موسى: هذا المدعو بدر كان دخوله شؤمًا علينا، أفسد لنا كل ما خططنا من أجله، وأعتقد أنه لن يستسلم.

سعيد في غضب: لو أردتم رأيي، لابد وأن نقتله.

مصطفى بصرخة مكتومة: لا، ماذا تقول أيها الأبله؟ هل أدمنتم القتل، ألم يكفكم ما فعلتموه بالأستاذ عبد الرحمن، كلا لن يكون هذا.

موسى وهو يمسك بتلابيب مصطفى: تقصد ما فعلناه جميعًا يا مصطفى.

أطرق مصطفى برأسه ثم رفعها قائلًا: ولكن يا موسى فكرة القتل هذه ليست صائبة.

موسى: بل أراها عين العقل يا مصطفى، هذا الرجل لن يسمح لأي أفكار دخيلة على القرية بالانتشار، إذا كان قد حارب الخرافات وتصدى لافتتان الناس بالأضرحة والقبور والتبرك، فماذا سيفعل عندما نقيم لنا مقرًّا يعبر عنا، ونظهر شعائر مذهبنا وندعو الناس إليه بصفة مباشرة؟

مصطفى في محاولة أخرى لإثنائهم: يا موسى، ليست في كل مرة تسلم الجرة، هل تستبعد أن يتوصل الأمن لمعرفة القاتل؟

موسى بكل ثقة: حتمًا ستقيد القضية ضد مجهول لأنه ليس له أعداء في القرية.

مصطفى مرة أخرى: وهل تضمن أن تتم العملية دون كشفها؟ لو تم لانكشف أمرنا جميعًا.

سعيد: دعك من رقيق القلب هذا وأخبرنا، ما هي خطتك؟

موسى: طعنة في الظلام من الظهر وهو متوجه إلى مسكنه غدًا الخميس بعد صلاة العشاء.

مصطفى صارخًا: حذار أن تفعلوا.

صفعه موسى على خده، وهو يقول: اسمعني أيها الأحمق، نحن جميعًا في مركب واحد، إما أن تسير بنا ونصل، وإما أن نغرق جميعًا، هل فهمت؟

أطرق مصطفى برأسه، ثم أشاح بوجهه عنهم وهم يرسمون تفاصيل خطتهم القذرة.

ليلة الدم

توجه بدر بصحبة صلاح إلى بيت الأخير بعد صلاة العشاء، وهنالك جلس مع صلاح وأبيه وقد شعر بدفء الجو الأسري، وازداد تعلقه بتلك الأسرة الطيبة.

بدر: عمي، لقد بعت مسكني هناك في قنا، وأعتزم شراء سكن هنا في القرية.

الوالد: ولماذا تشتري سكنًا يا بني، لدينا شقة خالية غير شقة صلاح التي سوف يتزوج بها في المستقبل، وقد كان لي ولد ثم صار لي اثنان، تزوج بها يا بدر.

بدر في خجل: عفوًا يا عمي، أستأذنك في أن أقيم بسكن من حر مالي ورجاءً لا تسيء فهمي.

صلاح مازحًا: هكذا فلتظهر على حقيقتك، تقول: أنتم أهلي، أهلي، وعندما تعرضت لأول اختبار رسبت فيه يا فضيلة الشيخ.

الوالد: لماذا يا ولدي؟ أنت ابني بالفعل، لماذا لا تريد أن تقيم بالقرب مني، أحببتنا وأحببناك، وصرنا لك أهلًا وصرت لنا ولدًا، فما الذي يمنعك من الإقامة معنا؟

أطرق بدر برأسه وهو لا يدري بم يجيب، إلا أن والد صلاح قد توسم في بدر الحرج، وأنه سوف يقبل على مضض، فكره أن يسلك مع الشاب هذا المسلك فقال بعد صمت دام لحظات: حسنا يا ولدي، فليكن الأمر كما تهوى، على بركة الله.

استنار وجه بدر فرحًا وهو يشكر والده الجديد الذي عوضه الله به عن فقدان أبيه في سن مبكرة، قام على إثرها مستأذنًا للانصراف.

رافقه والد صلاح إلى الباب، فنظر بدر إلى ذلك الرجل الحنون لحظات، ثم قال له: أبي.

ابتسم الرجل قائلًا: أثلجت صدري بهذه الكلمة يا بدر وقد رأيتها تخرج من قلبك بحق، سل ما بدا لك يا بني، ماذا تريد؟

بدر: أريدك أن تأخذني بحضنك الدافئ.

وعلى الفور عانقه الوالد بشدة، وقد دمعت عيناه لذلك الذي يتدفق من قلبه تجاه الشاب، حتى أن المشهد قد أبكى عفاف وأمها وهما ينظران إليهما من خلف الباب.

انتشلهما صلاح من ذلك العناق الطويل وهو يخفي تأثره بذلك الموقف بمزاحه، ثم قال: هيا يا فضيلة العلامة، سرقت قلوب الناس في القرية، ثم جئت لتسرق قلب أبي، جعلتني أخاف على مكانتي لديه أيها اللص.

ضحك الجميع فأردف صلاح: سوف أصطحبك إلى منزلك.

نزل الشابان وهما يتحدثان بشأن القرية وأحوالها، وما إن انتصف الطريق حتى ألح بدر على صلاح بأن يرجع، فودعه واستكمل سيره إلى سكنه.

وفي الظلام كان أحد أتباع موسى يتسلل خلف بدر ببطء متقنعًا، ثم أخرج سكينه بهدوء وطوح به في الهواء باتجاه بدر، و...

خذ حذرك يا شيخ، قالها مصطفى وهو يندفع تجاه بدر وقد تلقى بدلًا منه طعنة غادرة، وما إن سمع بدر الصوت حتى استدار فوجد مصطفى وقد غُرز السكين في صدره، وأما القاتل فقد لاذ بالفرار.

أسنده بدر على ذراعه وهو يصرخ: أيها الناس، النجدة، النجدة، يا أهل القرية.

نزل الناس إثر صراخه، وتجمعوا حول مصطفى الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، ورأسه على ذراع بدر.

مصطفى وهو يلهث في ألم: سامحوني، سامحوني جميعًا.

بدر: لا تتكلم يا مصطفى، لا تجهد نفسك سننقلك إلى المستشفى، ثم صرخ في الناس: أريد سيارة بسرعة.

مصطفى: لا وقت لديّ يا شيخ بدر، فقط اسمعوني، ما سأقوله هو أنفع لكم من حياتي.

تابع في تهالك: احفظوا عني هذه الأسماء، أنا، وموسى عبد الجليل، وسعيد مختار، و...

ظل مصطفى يعدد أسماء ثم استطرد: كلنا أعضاء في تنظيم مشبوه، يريد نشر أفكاره عن طريق اختراق الصوفية بعد تأصيل الخرافات، وأعرف أن معظمكم لا يفهم كلامي، لكنك بالتأكيد يا شيخ تدرك ما أعنيه، أليس كذلك؟

أومأ بدر برأسه في أسى قائلًا: نعم يا مصطفى، على رسلك يا أخي، لا تجهد نفسك بالكلام.

مصطفى وكأنه لا يصغي إلى كلامه: نحن الذين قتلنا الأستاذ عبد الرحمن عندما اكتشف سرنا، نعم قتلناه عند الشجرة، ودفناه خلف الربوة، وأعتبر نفسي منهم لأنني كنت معهم وإن لم أشترك بقتله.

صرخ مصطفى من فرط الألم ثم استطرد وقد تجمع معظم أهل القرية: ونحن الذين أوهمنا الناس بصورة الغريب على الشجرة عن طريق جهاز أعطانا إياه زعيم الشبكة.

اتسعت عيون الجميع مع تلك المفاجآت المتلاحقة، فأردف مصطفى: فعلنا ذلك حتى نؤصل لديكم الاعتقاد في شجرة الغريب يا أهل القرية.

أردف وهو يتمنى أن يطول عمره ليكمل لهم الحكاية: ولما عزم موسى ورفاقه على التخلص من الشيخ بدر خوفًا على مشروعهم، عارضتهم دون جدوى، ولكنني قد أقسمت بيني وبين نفسي ألا تراق دماء أخرى.

بدأ لسان مصطفى يثقل وآلامه تزداد وهو يقول في تهالك: لقد كنت أموت في كل يوم يأتيني فيه القتيل دون رفقائي ليأخذ بثأره مني، الحمد لله لعل الله يسامحني.

بدر وهو يبكي: لعل الله قد اطلع إلى ما في قلبك من خير وضمير حي، وأراد أن يطهرك يا مصطفى.

نظر مصطفى إلى زوجته الباكية أمامه ثم قال: أسديتِ لي أعظم معروف بنصيحتك لي، سامحيني، وليسامحني أبنائي، ولتسامحوني جميعًا.

ثم أمسك بيد الشيخ بدر وهو يقول بصوت خافت: ادع الله أن يرحمني يا شيخ بدر.

بدر باكيًا: نعم سأفعل يا مصطفى سأفعل إن شاء الله، أبشر بمغفرة الله.

اتجه بصر مصطفى إلى الأمام وهو يبتسم في ظل دهشة الحاضرين ثم قال: إنني، إنني، إنني أرى الأستاذ عبد الرحمن يبتسم لي.

إنني، إنني، إنني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

قالها وارتخت يداه جانبًا وقد شخص بصره، وأنكفأت عليه زوجته تبكي، ونظرات من الجميع تنطلق إلى هذا الجسد الممدد على الأرض، تجمع بين الدهشة والحزن قد مزجتهما الدموع في ليلة الدم.

نهاية الأسرار

مر شهر بعد هذه الواقعة، استقبلت القرية خلاله العديد من الجهات الأمنية، وانتهت القضية بالقبض على الجناة وتقديمهم للعدالة.

وبعد أن استقرت أوضاع القرية، عاود الناس اهتمامهم بمسألة الحفر عند الشجرة لاستخراج كنزها حسبما تم الاتفاق عليه من قبل.

وقف الجميع حول الربوة التي تحتضن شجرة الغريب، وقد تقدم صوبها كل من الدكتور أحمد والشيخ بدر والدكتور صلاح.

الدكتور أحمد بلهجة ذات مغزى: إنها فرصتكما لدحض هذه الخرافات، وفرصتي لتحقيق كشف تاريخي، معدات الحفر والتنقيب كلها موجودة، لن نبذل معها كثيرًا من الجهد.

الدكتور صلاح: وماذا لو لم تكن هناك قلادة بالفعل؟

مط الدكتور أحمد شفتيه وهو يقول: لن تخسرا، فعدم وجود أسرار دفينة كما يقولون، وعدم إصابتكما بالأذى واللعنة كما يرددون، هذا في حد ذاته انتصار لكما، وإثبات لما تقولانه بشأن هذه الخرافات.

بدر: وماذا عنك؟

الدكتور أحمد وهو يمط شفتيه بلامبالاة: ألقى جزائي من أهل القرية، لكن الأمر جدير بالمخاطرة والمغامرة، وعلى كل حال جهاز الكشف عن المعادن ينبئ عن وجود شيء معدني بالفعل على عمق أربعة أمتار.

صلاح: على بركة الله، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ثم شرعوا في الحفر باستخدام الآلات الحديثة التي أحضرها الدكتور أحمد، بعد أن ذكروا الله ودعوه بألا يخذلهم.

مرت ساعات من الحفر والتنقيب، وقبيل الغروب، صرخ الدكتور صلاح من أسفل مكان الحفر، وهو يمسك يده في هلع.

بعض الحضور: أرأيتم، لقد حلت به اللعنة، قلت لكم بألا تطاوعوهم، قلت لك يا سيدي العمدة.

هم الناس بالفرار إلا أن صوت ضحكات صلاح المتعالية قد أوقفتهم، فإذا به يحرك يده، فضحك الجميع واستمر الحفر.

وما هي إلا دقائق معدودة قبل أن ترتحل الشمس، حتى سمع الناس صوت تكبير الشيخ بدر وتبعه تكبير صلاح، وهو يمسك بالقلادة التي تكاد تكون مطمورة المعالم، فأخذها الدكتور أحمد وقام بمعالجتها ببعض المواد التي تصقلها وتعيد لها رونقها وبريقها، فإذا هي مطابقة لما يعرفه عنها تاريخيًّا، وقد نُقش عليها اسم أحمد وجولنار.

العمدة وهو يلهث من الفرح: هيا يا دكتور، هيا، انتزع الخريطة، خريطة الكنز.

ارتبك الدكتور أحمد وقال بكلمات متقطعة والخوف يتملكه: الخريطة؟ نعم، الخريطة.

العمدة: هيا يا رجل أرنا الخريطة، ألم تقل أنها مخبأة في القلادة؟

الدكتور أحمد: في الحقيقة يا سيدي العمدة، أنا...

«كاذب»، قالها العمدة في غضب جم، ثم أردف: الحقيقة أنك خدعتنا أليس كذلك؟

الدكتور أحمد في رعب: سيدي العمدة نحن أمام كشف تاريخي، ستنال قريتكم على إثره شهرة واسعة، و...

قاطعه بعض الحاضرين في عصبية: وماذا سنفعل بالشهرة، نحن نريد الكنز، أنت تستحق القتل.

كفى، دعوه، نطق بها الشيخ بدر في حزم، فإذا بالجميع يلتفت إليه، فاستطرد: لقد أسدى لكم الرجل خدمة عظيمة ومعروفًا كبيرًا.

العمدة صارخًا: أي معروف يا شيخ بدر؟ لقد خدعنا.

بدر: لا يا سيادة العمدة، لقد أثبت لكم أن الغريب ما هو إلا أمير هارب قتله الحزن على زوجته وطفله، أي أنه ليس هناك ولي، ليس هناك أسرار مدفونة، وبالتالي ليست هناك شجرة مباركة، لقد ظهر الحق الذي طُمر على مدى مائتي عام، ورثتم خلالها الخرافات عن الآباء والأجداد، وأغلقتم عقولكم، ووليتم الأدبار لمنهج نبيكم ﷺ.

ثم قال بنبرة هادئة: الأولى أن تشكروه، لقد قدم لكم ما هو أثمن من الكنز، أفيقوا أيها الأحبة من سباتكم، وودعوا عصر الجهل والخرافات.

الدكتور صلاح: الذي يستحق الشكر حقًّا يا بدر هو أنت، أنت الذي ناضلت من أجل الحق وظهوره.

عانقه بدر وهو يقول: الفضل لله يا صلاح ثم إيمانك بالقضية وسعيك من أجلها.

صلاح بحزم: عفوًا يا دكتور، ويا سيادة العمدة، ويا أهل القرية، هذه القلادة ملك للدولة، يجب أن تسلم إلى الجهات المعنية باعتبارها أثرًا تاريخيًّا.

ابتسم الدكتور أحمد في زهو قائلًا: بالطبع يا دكتور صلاح، يكفيني فخرًا ذلك النجاح الذي حققتُه، ثم تنحنح وعدَّل من نبرة صوته: أقصد حققناه، وأردف: يكفيني هذا، ولست أعبأ بقيمتها المادية على الإطلاق.

احتمل أهل القرية الشيخ بدر على أعناقهم، وهتفوا له، فاستوقفهم قائلًا بأعلى صوته: حفل زفافي يوم الخميس المقبل إن شاء الله تعالى، وأنتم مدعوون جميعًا.

الجميع: مبارك يا شيخ بدر، مبارك، فتابع الشيخ بدر مبتسمًا: ولكن أين هدية زفافي؟

ضحك الجميع وقالوا: ما تأمر به نافذ يا شيخ.

قال: حقًّا؟ قالوا: نعم.

تنفس بعمق ثم تابع: أريد رماد شجرة الغريب.

كبر الجميع، وسارعوا إلى تقطيع الشجرة وإحراقها، وقاموا على حرقها يومين كاملين، حتى تحقق الحلم، وانتهت الأسرار، أسرار شجرة الغريب.

الزفاف

وفي بيت العمدة، كان بدر يتجهز لزفافه بناء على طلب العمدة وإلحاحه، والذي علق الزينة في جميع أنحاء القرية، ابتهاجًا بعرس ذلك الشاب الذي تغير على يديه مجرى حياتهم.

ارتدى بدر حلة الزفاف، فكان كأبهى ما يكون الشباب، وخرج بوجهه المستنير على أهله، أهل القرية التي صارت في قلبه وصار هو في قلوب أهلها.

كان بدر يسير بسكينة في موكب عرسه، متوجهًا إلى بيت والدها، ليتسلم الأمانة من والده الجديد، ليأخذ عروسه إلى عش الزوجية الجديد.

توقف في طريقه ليرى أصغر أبناء مصطفى رحمه الله، فمال نحوه وعانقه، وهو يقول: افتخر بأبيك، لقد مات في سبيل الحق، والدك كان رجلًا طيبًا في قلبه الخير، هزمه الشيطان مرة، وانتصر هو على الشيطان في معركة أشد، أليس كذلك؟

تبسم الصبي، فاحتضنه بدر قائلًا: سوف تجدني مكان أبيك إن شاء الله.

واصل بدر سيره بموكب الزفاف وشريط حياته يمر أمام ناظريه، يجول فكره في ذكريات طفولته عندما كان والده يحمله على كتفيه، عندما كانت أمه تحيك الملابس للناس من أجل الإنفاق عليه، عندما كان يدخل عليها يقبل يديها ويبشرها بتفوقه في الدراسة.

سيل متدفق من الذكريات قد اجتذب فكره، ولم يفق إلا عند بيت عروسه، حيث استقبله والده الحنون، وأخوه العطوف، أسرته الجديدة التي عوضه الله بها عن وحدته، استقبلاه بالعناق الحار، وسط فرحة غمرت كل الحاضرين.

بدر: أبي، لقد منحتني ثقتك وأدعو الله أن أكون أهلًا لها.

والد صلاح: أنت بالفعل أهل لأكثر من ذلك يا ولدي.

صلاح: بدر، صديقي، أخي، أشهد الله على أنني لم أر إنسانًا مثلك، وشرف لنا مصاهرتك.

عانقه بدر، ثم نظر إلى شرفة عروسه وتبسم، وأدار عينيه في جموع الناس يوزع عليهم ابتسامته العذبه التي أضفت عليه مزيدًا من الحسن.

ثم قال بدر في هدوء وهو ينظر إليهم جميعًا: أشعر أنني...

انتبه الجميع لما يعتزم بدر قوله، فتابع: أشعر أن هذه الليلة...

والد صلاح: ما الأمر يا بني، تكلم، قل ما تود قوله.

صمت بدر وهو يلقي على الجميع نظرة حانية، ثم بدأ يترنح وسط ذهول الحاضرين، فأسنده صلاح إلى الأرض، وقد خارت قوى بدر.

نزل الوالد بدوره على ركبتيه وهو يمسك ببدر في وجل قائلًا: ماذا بك يا بني، بم تشعر يا بدر؟

تبسم بدر ووجهه مستنير كالبدر، وهو يقول: أحبكم جميعًا، أحبكم جميعًا، كنت أشعر في طريقي إليكم أن العرس لن يكتمل، لكن فرحتي قد اكتملت عندما وجدت أهلًا مثلكم.

تابع بدر في ضعف: شجرة الغريب قطعت وأخذت معها ما كنت أخشاه عليكم، ولئن كنت غريبًا في قريتكم لكنني على ثقة من أن سيرتي لن تنقطع من بينكم أليس كذلك؟

هز صلاح رأسه والدموع تتساقط من عينيه، وأما الوالد فقد أخذ بدر بين أحضانه باكيًا منتحبًا وهو يقول: لا تقل هذا الكلام يا بني، ستكون بخير، احمله معي يا صلاح ننقله إلى المستشفى هيا بسرعة.

هم صلاح بحمل صديقه الممدد، إلا أن بدرًا قد استوقفه بإشارة منه وهو يمسك بيد الوالد قائلًا: قل للعروس لا تحزن، لعل الله أراد لها من هو خير مني يا أبي.

تهللت أسارير الشاب فجأة وهو يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، رددها بدر وصوته يزداد خفوتًا في كل مرة حتى غابت معالم الكلمات من على لسانه، وقد ارتخت يده جانبًا.

بدر، بدر، بدر قالها صلاح ببكاء هستيري، مستطردًا: قم يا صديقي، قم يا أخي، قم للزفاااااااااااف، قم يا بدر، قم يا بدر، قم لعرسك، قم لأهلك، انهض يا بدر، ثم ضمه إلى صدره وهو ينتحب.

وأما الوالد فقد هطلت عيناه بالدموع وهو يسترجع، ويربت على كتف صلاح، وأهل القرية جميعًا في حالة لم يعهدوها من قبل من البكاء والحزن وهو ينادون الشيخ بدر في يأس من أن يجيبهم.

وهنالك في شرفتها وقفت العروس تطالع المشهد في أسى وهي تنتحب على فرحة لم تكتمل، وبجوارها أمها تحتضنها باكية، ونسوة قد اختلط بكاؤهن بكلمات المواساة للعروس.

جهزوا الشاب وساروا به إلى القبور في مشهد مهيب، حتمًا ستظل القرية تتذكره أبدًا، أسكنوه قبره، وأودعوا معه قلوبهم، ثم أهالوا عليه التراب، ومكثوا عند قبره ساعة لا يريدون أن يفارقوا مرقده.

توالت العبارات والكلمات التي تعبر عن عظيم الأسى في القلوب، ولم يجد أحد المحزونين شيئًا يعبر به عن محبته للشيخ الراحل سوى أن قال: لابد وأن نقيم لهذا الرجل الصالح ضريحًا يليق به.

صلاح وهو يصرخ: لاااااا .

الفهرس

الهروب ٣
شجرة الأحزان ١١
التيه ١٥
الميراث المشئوم ١٩
شبكة الدمار ٢٣
صوت مختلف ٢٦
الوافد الجديد ٢٩
شياطين الظلام ٣٣
منبر الحق ٣٧
البرهان الأعمى ٤٠
الجريمة ٤٤
إشارة يفهمها اللبيب ٥٠
المؤامرة ٥٥

ابن القرية ٥٨
عبق الماضي ٦٢
عذاب الضمير ٦٧
قلادة الأميرة ٧١
الزوبعة ٧٨
الرأي ٨٥
مائدة الشيطان ٨٨
ليلة الدم ٩١
نهاية الأسرار ٩٩
الزفاف ١٠٦
الفهرس ١١٢